الفصل الرابع

منتخبات من آثار الشريف الرضى

١ ـ الشريف الشاعر

ا ـ المدح

الزمان الطيب

قال الشريف من قصيدة يمدح بها أباه ، ويهنئه بعيد الفطر سنة ٣٧٧ هـ .

قريبُ الفتى دُون الأنام صديقُهُ ... وليس قريباً منه مَنْ لا يُقرِّبُ
وما فى نجاد[1] السَّيف زَيْنٌ لحاملٍ ... ولا الزَّيْنُ إلا للفتى يَوْمَ يَضرِبُ
أخو الحربِ مَنْ للسيف فيه علامةٌ ... وللطعن فى جَنْبَيه طرْق وملْعَبُ
وَحَسْبُ غلامٍ شاهدا بشجاعة ... تَغيظُ العِدى أن القَنا مِنه[2] تُخْضَب
ومالى إلى غير « الحُسين »[3] وسيلةٌ ... وفى جوده دُونَ الرغائب أرْغَبُ
جرىءٌ على الأَمْرِ الذى لا يرومُهُ ... من القوم إلا حازمُ الرأْيِ أغْلَبُ
ألا إنَّ فَحْلاً[4] ساعدتْه نجيبةٌ ... فجاء بِنجْل كالحسين لمُنْجِبُ
وإن محلاً حَلَّ فيه لواسعٌ ... وإن زماناً عاشَ فيه لطَيب
لك الله مِنْ مُغْضٍ[5] على جُرم جارمٍ[6] ... ولو شاء ما استولى على الذَّنب مُذنبُ

---

(١) النجاد : حمائل السيف . ويقال : فلان طويل النجاد ، وهى كناية عن طول القامة .
(٢) القنا : جمع قناة ، وهى الرمح ، وتخضب : أى تلطخ بالدماء .
(٣) الحسين هنا هو والد الشاعر وليس جده الشهيد الحسين بن على بن أبى طالب .
(٤) الفحل من الرجال : القوى الشديد . والفحل فى العلم والشعر هو العالم فيهما .
(٥) مغض : اسم فاعل من الفعل : أغضى . أى تجاوز عن ذنب المسىء .
(٦) الجارم : اسم فاعل بمعنى مرتكب الجرم .

وفى كل يومٍ أنت طالبُ غارةٍ تُجرِّرُ أذيالَ العوالى وتسْحَبُ
تنامُ على أمرٍ ، وهمُّكَ ساهرٌ وتنزل عن أمر وعزمُك يَرْكبُ
تحقَّقتِ الأحياءُ أنكَ فخرُها وأغْضَتْ على عِلم نزارٌ ويعرب[1]
إذا شئتَ أحياناً شفاكَ من العِدى سنانٌ بصير بالطعان ومضرب
إذا قيل فيك الشّعْر[2] جوَّدَ مَادحٌ وأكثر وصَّاف ، وأعرق مطنبُ
وغيرُك لا أُطْريه[3] إلا تكلّفاً وغيرُ حنينى عند غيرك مُصْحِبُ
بَغِيضٌ إلى الأيام أنك لى حِمًى[4] وغيظٌ. بنى الأيام أنك لى أبُ !
أبَعْدَ النبي والوصى[5] تروقنى مَناسِبُ[6] مَن يُعزَى لمجد ويُنسب؟

أكثرت شعرى

وقال يمدح الخليفة الطائع ، ويهنئه بعيد الفطر ، ويعاتبه على تأخير الإذن له فى لقائه :

شُغلتُ بالهمِّ حتى ما يفرِّحنى لولا الخليفة ـ نَوروزٌ[7] ولا عِيدُ
محسَّدٌ[8] المجد مغبوطٌ مناقبُهُ متيَّمُ القلب بالعلياء معمودُ

---

(١) نزار ويعرب : جدان من أجداد العرب ، فالأول جد للعرب العدنانية ، والثانى جد للقحطانيين .

(٢) جود : أتى بالجيد من الشعر ، وأعرق : أتى بالشىء الأصيل العريق ، والمطنب : هو المكثر فى القول ، وهو ضد الموجز .

(٣) الإطراء : المديح والثناء .

(٤) أى أن الأيام تكره أننى فى حمايتك فلا تمسنى بسوء . والناس متناظون لشرف انتسابى إليك .

(٥) الوصى هو الإمام على بن أبى طالب .

(٦) المناسب : روابط النسب .

(٧) النوروز : عيد من أعياد الفرس ، وكان يحتفل به فى العصر العباسى أيام ازدهار دولة بنى بويه وهم من الفرس .

(٨) أى محسود بكثرة على مجده ، والمعمود أى المجهد بسبب طلبه للعلياء .

ما راق عينيه إلاَّ ما أقرَّهما[1] من المكارم ، لا عَينٌ ولا جيدُ
مِن هاشمٍ أنت فى صمَّاء شاهقةٍ لها راوقٌ بباع المجد معمودُ[2]
نهايةُ العز أن تَبقَىَ له أبدا وغاية الجود أن يبقى لك الجود
لأَى حالٍ يدارى القلبُ غُلته رجاء وِردٍ ، ووِردى منك[3] تصريدُ؟
قد كنتُ عن عَدد الأيام فى شُغُل فاليومَ عامى لوعد منك معدودُ !
أعيذُ مَجدَك أن أبقى على طَمع وأن تكون عطاياى المواعيدُ
مالى أحبُّ حبيباً لا أشاهده ولا رَجَاى إلى لُقياهُ ممدود ؟
أكثرتُ شِعرى، ولم أظفرْ بحاجته فسقِّنى[4] قبل أن تفنى الأغاريد!

بينى وبينك حرمتان

وقال وهوفى سن الخامسة عشرة يمدح الصاحب بن عباد الوزير الأديب المشهور ، وقد بلغه أنه أعجب بشعره . . .

فى كلِّ معضلة أضبَّ رتاجها يُلقِى إليكَ الدِّينُ بالإقليدِ[5]
فاللهُ يشكرُ والنبىُّ محمدٌ وَقَفاتِ مُبْدٍ فى النضالِ مُعيدِ
لو كان يمكننى التقلُّبُ لم يكن إلا إليك تهائمى ونُجودى[6]

(١) أقر العين سرها وأفرحها . ويقصد أن الممدوح تسر عينه المكارم لا العيون والأجياد .
(٢) الصماء : الصخرة الجامدة .
(٣) الورد هو ورود الماء للرى ، والتصريد هو الماء القليل .
(٤) سقنى : اسقنى .
(٥) أضب رتاج الأمر أى كثر فيه الاختلاط والاضطراب . أو أضب الرتاج أى أغلق بالضبة وهى الحديدة العريضة يضبب بها الباب . والرتاج هو الباب . والإقليد : المفتاح . والمعنى أنه إذا أعضلت الأمور فأنت حلال مشكلاتها .
(٦) التهائم والنجود هى الأراضى المنخفضة والمرتفعة . وسميت « تهامة » كذلك لانخفاضها، وسميت « نجد » كذلك لارتفاعها .

وَطويتُ ما بَعُدتْ مسافةُ بيننا ... إن البعيد إليكَ غير بعيد

بيني وبينَكَ حُرمتان تَلاقَتا ... نَثْرِى الذى بك يقتدى وقصيدى[١]

ووصائلُ الأدب التى تصلُ الفتى ... لا باتصالِ قبائلٍ وجدود[٢]

إن أُهدِ أشعارى إليكَ فإنهُ ... كالسَّرْدِ أعرضُهُ على داود[٣]

كأنك للأرض العريضة مالك

وقال من قصيدة يمدح الوزير أبا نصر سابور بن أردشير ، وزير بهاء الدولة بن بويه ، عقب زوال وحشة كانت بينه وبين والده الشريف الحسين :

لك الله ما الآمالُ إلا ركائبٌ ... وأنتَ لها هادٍ ، وحادٍ ، وقائدُ

أَبَى لكَ إلا الفضلَ نفسٌ كريمةٌ ... ورأىٌ إلى فِعْلِ الجميل مُعاودُ

وطَودٌ من العلياءِ مُدَّت سُموكُهُ ... فطالت ذُراه واطمأَن القواعدُ[٤]

وإنى لأرجو مِن عَلائكَ دولةً ... تُذلِّل لى فيها الرقابُ العوانِدُ[٥]

ويوماً يُظلُّ الخافقين بمُزنة ... رَذاذُ غواديها الرءوسُ الشواردُ[٦]

---

(١) الحرمة ما لا يحل انتهاكه ، فهو يتقرب إلى ممدوحه بحرمتين : النثر والشعر . وقد أراد مدح نثره فقال إنه يقتدى بنثر الممدوح .

(٢) الوصائل جمع وصيلة – على وزن وسيلة – وهى ما يوصل بها الشىء .

(٣) السرد اسم يجمع الدروع وحلق الحديد . وداود هو النبى عليه السلام الذى ألان الله له الحديد ليعمل دروعا سابغات . والدرع لا تهدى إلى داود – لأنه أستاذ هذه الصنعة – كالتمر لا يهدى إلى « هجر » لأنها مشهورة به .

(٤) الطود : هو الجبل العظيم . والسموك جمع سمك بفتح السين وهو الارتفاع . والذرا جمع ذروة وهى قمة الجبل . واطمأن القواعد أى اطمأنت واستقرت . والفعل هنا لم تلحقه تاء التأنيث لأن الفاعل مؤنث مجازى.

(٥) العوانِد : جمع عانِد وهو المخالف للحق المتجاوز فى الخلاف والعصيان .

(٦) الرذاذ : المطر الخفيف والغوادى جمع غادية وهى السحابة الممطرة ، والرءوس الشوارد : أى المنفصلة عن الأجسام .

لأُعقِدَ مَجدا يعجزُ الناسَ حلُّه ... وتَنحلُّ من هام الأعادى مَعاقِد
فمن ذا يُراميني ولى منكَ جُنةٌ ... وَمَن ذا يدانيني ولى منك[1] عاضدُ
علىَّ رداءٌ من جمالك واسعٌ ... وعندىَ عزٌّ مِن جلالك خالِدُ
ولو كنتُ ممن يملكَ المالُ رقَّهُ ... لغلَّت بعنقى من نداك قلائد![2]
فلا تتركنِّى عُرضةً لمُضاغنٍ ... يُطارِد فى أضغانه ، وأطارد[3]
ولولا صدودٌ منكَ هانت عظائمٌ ... تَشقُّ على غيرى ، وذلَّت شدائد
ولكنك المرءُ الذى تحتَ سُخطهِ ... أُسودٌ ترامى بالردَّى وأساود[4]
كأنَّكَ للأرضِ العريضة مالكٌ ... وحيدا ، وللدنيا العظيمةِ والدُ
فَعَوْدًا إلى الحلم الذى أنت أهلُه ... فمثلك بالإحسان بادٍ وعائدُ[5]
وَحامِ عَلَى ما بيننا من قرابةٍ ... فإن الَّذى بينى وبينَكَ شاهدُ
وأرْع مقالى منك أُذناً سميعة ... لها بلقاء السائلينَ عوائدُ

مراح الأمانى ومغداها

وقال من قصيدة يمدح بها بنى بويه المتغلبين على الدولة العباسية ، ويذم أعداءهم ، ويعتذر مما كان أشيع عنه من أنه نوى الرحيل عنهم وفراق بغداد :

أفى كل يوم للمَطامِع جاذبٌ ... يُجشِّمنى ما يُعجِزُ الأَسَدَ الوَردا[6]

(١) يراميني : أى يطلب رميى بالسهام . والجنة بضم الجيم : الوقاية . والعاضد الذى يعضد المرء ويساعده .

(٢) يملك المال رقه أى يأسره المال ويستهويه . وغلت أى غللتنى كالأغلال فى الأعناق ، والقلائد جمع قلادة ، وهى ما يوضع حول الجيد ، والمراد هنا النعم والعوارف .

(٣) المضاغن الذى يكاشف بالضغينة .

(٤) الأسود جمع أسد ، والأساود جمع أسود وهو العظيم من الحيات .

(٥) باد وعائد أى مبتدئ ومعيد .

(٦) الأسد الورد : الأسد الشجاع الجرىء .

أَحُلُّ عقودَ النائباتِ وأَنثنى ... وَخَلْقى يدٌ للدهر تُحكمها عقْدا
إذا ما نفذتُ السَّهم من كل حادثٍ ... رأيتُ أمامى دُونَ ما أبتغى سدًّا
أأترك أملاكاً رزاناً حلومُهمْ ... حلولا على الزوراءِ أيمانهم تَنْدى[1]
إذا ما عدمنا الجودَ منهم لعلةٍ ... فلن نعدِمَ العلياءَ منهمْ ولا المجدا
وإن كريمَ القوم مَن خَدمَ العلا ... وإن لئيم القوم مَن خَدمَ الرِّفْدا[2]
تَخالهمُ غيدًا إذا بذلوا النَّدى ... وتحسبهم جنًّا إذا ركبوا الجُرْدا[3]
أآل بويه ما نرى الناسَ غيركم ... ولا نشتكى للخلْق لولاكمُ فَقْدا[4]
نرى منعكمْ جُودا ، وَمَطْلكمُ جَدًّا ... وإذلالكم عِزًّا ، وإمراركم شَهْدا[5]
وَعَيْشَ الليالى عند غيركمُ رَدًى ... وَبَرْدَ الأمانى عند غيركمُ وقْدا
إذا لم تكونوا نازلى الأرضِ لم نَجدْ ... بها الوادِيَ الممطور والكلأَ الجعَدا[6]
وكنتُ أرى أنى متى شئتُ دونكم ... وجدتُ مجازا للمطَالب أو مَعْدى
فلم أر لى مِن مَطلعٍ عن بلادكم ... ولا من مَرَاح للأمانى ولا مَغدى[7]
خذوا بزمامى قد رجعتُ إليكم ... رجوعَ نزيلٍ لا يرى منكمُ بدا
أريدُ ذهاباً عنكمُ فيردُّنى ... إليكم تجاريبُ الرجال ولا حَمْدا

عطفاً أمير المؤمنين

وقال من قصيدته القافية يمدح الخليفة القادر بالله العباسى . ويظهر فى هذه

---

(١) الأملاك : جمع ملك ويجمع أيضا على ملوك. الرزان: جمع رزين، والحلوم: جمع حلم. والزوراء اسم لبغداد . والأيمان : جمع يمين وهى اليد . وتندى أى تجود وتفيض بالندى .
(٢) الرفد : العطاء . يقول إن الكريم يخدم العالى ، واللئيم يخدم العطاء والنوال .
(٣) الغيد : جمع غيداء . والندى : المعروف . والجرد : كناية عن الخيل .
(٤) يقول لممدوحيه: إنه لا يعد الناس ألاهم ولو فقد غيرهم لما أحس بفقدان شىء . . .
(٥) المطل هو تأخير العطاء .والجدا : العطاء . والإمرار ضد الإحلاء .
(٦) الممطور: الذى أصابه المطر فأخصبه ، والجعد : الكثيف .
(٧) المراح مكان الرواح ، والمغدى مكان الغدو .

القصيدة إباؤه واعتداده وعزة نفسه ، وقد ألقاها بمجلس الخليفة فى سنة سنة ٣٨٢ هـ .

لله يومٌ أطلعَتْكَ به العُلا ... علما يزاول بالعيون ويُرشَق
لما سَمت بك غُرة مرموقةٌ ... كالشمس تَبْهر بالضياء وتُومَق[1]
وبرزتَ فى بُرد النبى ، وللهدى ... نورٌ على أطراف وجهك مشرق[2]
وكأن دارك جنةٌ حَصْباؤُها الـ ... ـجادىُّ ، أو أنماطُها الإسْتَبرق[3]
فى موقف تغُضى العيونُ جلالةً ... فيه ، ويَعثرُ بالكلامِ المنطقُ
وكأنما فوقَ السرير وقد سما ... أسدٌ على نشَزاتِ غابٍ مُطرق[4]
والناس إما راجعٌ متهيِّبٌ ... مما رأى ، أو طالعٌ متشوق
وَطَعنْت من غُرر الكلام بفيصلٍ ... لا يستقلُّ به السنانُ الأزرق[5]
وغرستَ فى حَبِّ القلوب مودةً ... تزكو على مَرِّ الزمانِ وتُورق
عَطفاً أمير المؤمنين ! فإننا ... فى دوحة العلياء لا نتفرق !
ما بيننا يومَ الفخارِ تفاوُتٌ ... أبدا كلانا فى المعالى مُعرقُ
إلا الخلافةَ مَيَّزَتْكَ .. فإننى ... أنا عاطلٌ منها ، وأنت مطوق

هذا أبى

كان عضد الدولة بن بويه قد صادر أملاك والد الشريف وحبسه فى قلعة بفارس . وكان شرف الدولة بن عضد الدولة هو صاحب الفضل فى إطلاق سراحه

---

(١) تومق : تحب .
(٢) برد النبى : ثوبه وكسوته .
(٣) الحصباء : صغار الحصا . والجادى : الزعفران ، والأنماط جمع نمط وهو ظهارة الفراش ، أو نوع من الأبسطة . والإستبرق هو الغليظ من الديباج .
(٤) السرير : سرير الملك . والنشزات ما ارتفع من الأمكنة .
(٥) الفيصل : هو الذى يفصل بين الأمور . والسنان الأزرق : هو النصل القاطع .

ورد أملاكه . فقال الشريف من قصيدة يمدحه على تفضله :

إيهٍ لقد أَسَر الدنيا بنَجدته ... أبو الفوارس ، والإقدام للبطل
ماضٍ على الهول ، طَلاَّع بغُرَّتِه ... على الحوادث ، مقدامٌ على الأَجل[1]
هُنِّئْت يا مَلك الأملاك منزلةً ... رَدَّت عليك بهاء الأَعصرِ الأُول
دعاك ربُّ المعالى زيْن ملتهِ ... وملَّةٌ أنت فيها أعظمُ الملل
صدمتَ بغدادَ والأيامُ غافلةٌ ... كالسيل يأنف أن يأتى على مَهل
بكلِّ أَبْلجَ معروفٍ بطلعته ... إذا تَناكرَ ليلُ الحادثِ الجَلَل[2]
هذا أبى ، والذى أرجو النجاح به ... أدعوهُ منك طليقَ الهمِّ والجذَل
لولاكَ ما انفسحتْ فى العيش همتُه ... ولا أقرَّ عيونَ الخيل والخَول[3]
وأنتَ طوَّقتَهُ بالمنِّ جامعةً ... قامت عليه مقام الحَلْيِ والحُلل[4]
أوسَعْتَهُ ، فرأى الآمال واسعة ... وكلَّ ساكِن ضِيقٍ واسعَ الأمل

ب — الفخر

يصول علىّ الجاهلون وأعتلى

وقال من قصيدة يفتخر :

لغير العُلا منى القِلَى والتجنُّبُ ... ولولا العُلا ما كُنتُ فى الحب أرْغَبُ
إذا الله لم يُعذِرك فيما ترومه ... فما النَّاسُ إلا عاذلٌ ومؤنِّب

---

(١) مقدام على الأجل : أى أنه كثير الإقدام على الموت المحتوم . وهى كناية عن الشجاعة .
(٢) الأبلج : الذى فى وجهه إشراق ووضاءة ، وهى كناية عن الرشد ، والجلل : العظيم .
(٣) أقر عيون الخيل : أى سرها ، وهى كناية عن فروسيته وحسن ركوبه الخيل ، والخول هى عطية الله لعبده من النعم والعبيد والأتباع والحشم .
(٤) الجامعة هى القيد . والمراد أنك ألبسته بالإحسان إليه قيدا يفتخر به ويغنيه عن الحلى والحلل . . .

ملكتُ بحلمى فرصةً ما استرقَّها ... من الدهر مفتولُ الذراعين أغْلَبُ[١]

فإن تكُ سنِّى ما تطاولَ باعُها ... فلى من وراء المجد قلبٌ مدرب

فَحسْبى أنى فى الأعادى مبغَّض ... وأنِّى إلى غُرِّ المعالى مُحبّب

وللحلم أوقاتٌ ، وللجهلِ مثلها ... ولكنَّ أوقاتى إلى الحلم أقْربُ[٢]

يَصول علىَّ الجاهلون ، وأعتلى ... ويُعْجِمُ فىَّ القائلون وأعربُ[٣]

يَرَوْن احتمالى غُصَّةً ، ويزيدهم ... لواعجَ غيظ. أننى لست أغضب[٤]

وأُعرِض عن كأْس النديم كأنها ... وميض غمام ، غائرُ المُزْن خُلَّب

وقورٌ فلا الألحان تأْسر عزمتى ... ولا تمكُرُ الصهباءُ بى حين أشرب[٥]

ولا أعرفُ الفحشاء إلا بوصفها ... ولا أنطقُ العوراء والقلبُ مُغْضب[٦]

تَحَلَّمُ عن كرِّ القوارض شيمتى ... كأَنّ مُعيدَ المدح بالذم مُطنب[٧]

تلك الكبرياء

وقال من قصيدة همزية يفتخر بنفسه وبآبائه بعد أن بدأها بشكوى الزمان :

تسخَّطْنا القضاء ولو عقَلْنا ... فما يُغنى تسخُّطُنا القضاء

---

(١) يقول : ملكت بالحلم ما لا يملكه القوى المفتول الذراعين .

(٢) هذا البيت من الأبيات السائرة فى الأدب العربى . وكثير من الناس يروونه ولا يعرفون أنه للشريف الرضى .

(٣) أى يقابل الجهال بالحلم ، والأشداء باللين .

(٤) إن حلمى وعدم غضبى يزيد فى غيظ أعدائى ، كما أن قوى تحملى لأذاهم تكون غصة فى حلوقهم

(٥) أى لا أدع الخمر تفقدنى رشدى وتضيع صوابى وتلعب بعقل . . .

(٦) لا أعرف الفحشاء إلا بسماعى لوصفها ، ولا أعرفها ممارسة . والعوراء هى الكلمة النابية .

(٧) ليس من طبعى أن أستمع إلى تقريظى والثناء على ومدحى . فالذى يعاود مدحى كأنه يذمنى أى أنه لا يغره مدح الناس له . . .

سأمضى للتى لا عيبَ فيها ... وإن لم أستفد إلا عناء
وأطلبُ غايةً إن طوّحت بى ... أصابت بى الحِمامَ أو العَلاء[1]
أنا ابن السابقين إلى المعالى ... إذا الأمدُ الطويلُ ثَنَى البطَاء
إذا ركبوا تضايقت الفَيافى ... وعَطَّل بعضُ جَمعهمُ الفضاء
نَمَانى من أُباة الضَّيم نامٍ ... أفاضَ علىَّ تلكَ الكبْرياء
شَأَونا الناسَ أخلاقاً لِداناً ... وأيماناً رِطابا[2] ، واعتلاء
ونحنُ النازلــون بكلِّ ثَغرٍ ... نُريق على جوانِبِه الدماء
ونحنُ الخائضون لكل هَولٍ ... إذا دَبَّ الجبانُ به الضَّراء[3]
ونحن اللابسون لكل مَجْــدٍ ... إذا شئنــا ادِّراعا وارتداء
أقمنا بالتجــارب كلَّ أمــرٍ ... أبَى إلا اعوجاجا والتواء
نَجُرُّ إلى العداة سُلاف جيش ... كَعَرض الليل يتَّبعُ اللواء[4]

ما بال بغداد ؟

تكاثرت الهموم والخطوب على الشريف فى بغداد ، فقال يشكو ويفتخر :

أبغدادُ : مالى فيكِ نَهْلةُ شاربٍ ... من العَيْش إلا والخُطوبُ مِزَاجُها
ولو أننى أرضَى بأدنى معيشةٍ ... لأرضتْ مُنَاى عند أهليكِ حاجُها
ولكننى جارٍ على حُكم همة ... كثير عن الطبع الذليل انعراجها

(١) الحمام : الموت . أى أننى سأطلب العلا أو الموت . وهو قريب من قول الشاعر : لنا الصدر دون العالمين أو القبر . .

(٢) شأونا الناس : أى سبقناهم وجزنا شأوهم ومداهم . والأخلاق اللدان : السمحة اللدنة المرنة ، والأيمان الرطاب : الأيدى التى تندى بالعطاء .

(٣) دب الضراء بفتح الضاد والراء : أى سار مستخفيا .

(٤) سلاف الجيش : أى مقدمته . واللواء : العلم الكبير .

يخيَّلُ لى أن الأمانى غياهبٌ ... ولا تنجلى إلا وَعَزمى سراجُها[1]
فما بالُ بغدادٍ إذا اشتقت رحلةً ... تَشَبَّثُ بى غيطانها وفجاجها ؟![2]
كأنَّ لها دَينا علىَّ ، وإننى ... سيطلبها سينى ، وَدينى خَراجها

ذمُّك الأيام لا يضرُّها

وقال يفتخر :

أرى ذمَّىَ الأيامَ ما لاَ يَضُرُّها ... فهلْ دافعٌ عنى ذوائبَها الحمدُ ؟
وما هذه الدنيا لنا بمطيعة ... وليس لخَلْقٍ مِن مُداراتها بُدُّ
تحوز المعالى والعبيدَ لعاجزٍ ... ويخدم فيها نفسَه البطلُ الفردُ![3]
أكلُّ قريبٍ لى بعيدٌ بِوُدِّه ... وكل صديق بين أضلعه حِقد ؟
ولله قلبٌ لا يبلُّ غليلهُ ... وصالٌ ، ولا يلهيه عن خلِّه وَعْد
يُكلفنى أن أطلب العز بالمنى ... وأين العُلا إن لم يساعدنىَ[4] الجَدُّ؟
أُريدُ من الأيام كل عظيمة ... ما بين أضلاعى لها أَسَدٌ وَرْد
ألا ليت شعرى هل تُبلغنى المنى ... وتَلقى بىَ الأعداءَ أحصنةٌ جُرْد[5]
كأن نجومَ الليل تحت سروجها ... تهاوَى على الظلماء ، والليل مُسْودُّ
يُعيدُ عليها الطعنَ كلُّ ابن همةٍ ... كأنَّ دم الأعداء فى فمِه شَهدُ

---

(١) الغياهب : جمع غيهب وهو الظلام . يريد أن يقول إن الأمانى مظلمة ولا يجلوها إلا عزمه.
(٢) تشبث : أصلها تتشبث ، حذفت التاء الأولى للتخفيف . والغيطان : جمع غيط وهو الأرض الواسعة المطمئنة ، والفجاج : جمع فج وهو الطريق الواسع .
(٣) تحور : أى تجمع ، والمعنى أن الدنيا تعطى العاجز المال والخدم والحشم ، وتضن على البطل الفرد حتى يضطر أن يخدم نفسه بنفسه .
(٤) الجد بفتح الجيم : هو الحظ والنصيب .
(٥) الأحصنة الجرد : الخيل القصيرة الشعر ، وهى كناية عن أنها جيدة أصيلة .

يضاربُ حتى ما لصارمه قُوًى ... ويَطعنُ حتى ما لذابله جهد[١]
إذا عربيٌّ لم يكن مثل سَيفه ... مضاءً على الأعداء أنكرَه[٢] الجَدُّ
يودُّ رجالٌ أنني كنتُ مفحما ... ولولا خصامى لم يودُّوا الذى ودُّوا
زهدتُ ، وزُهدى فى الحياة لعلة ... وحُجةُ من لا يَبلغُ الأملَ الزهد![٣]
وهان على قلبى الزمانُ وأهلُه ... ووجداننا ـ والموتُ يطلبنا[٤] ـ فَقْد

اطلبنى بين المواضى . . .

وللشريف الرضى أرجوزة يفتخر فيها بشجاعته وفروسيته يقول فيها :

ستعلمـــون ما يكون منِّى ... إن مدَّ من ضَبْعىَّ طولُ سنِّى[٥]
أأدعُ الدنـــيا ولم تَدعْنى ... يلعبُ بى عناؤُها المُعنِّى ؟
وسعْـــتُ أيامى ولم تَسَعْنى ... أفضُلُ عنها ، وتضيقُ عنى[٦]
ولى مضَاءٌ قطُّ لم يخُنِّى ... ضمير قلبى ، وضمير جفنى[٧]
سوف ترى غُبارَها كالدَّجن ... قساطلا مثلَ غوادى المُزن[٨]
إن غبتُ يوماً عنك فاطَّلبْنى ... بين المواضى والقنا تَجْدنى[٩]

---

(١) يضارب الأعداء حتى تكاد تنفد قوى سيفه الصارم ، ويجد الذابل .
(٢) الجد بفتح الجيم : هنا بمعنى والد الأب .
(٣) يعترف الشاعر فى هذا البيت بأنه لم يبلغ أمله فتعلل بالزهد. وهو قريب من القول المأثور : (إن من العفة أن لا تجد) .
(٤) الوجدان : هو الوجود . والمعنى أن وجودنا مع أن الموت يلاحقنا بالطلب هو الموت بعينه .
(٥) الضبع : ما بين الإبط إلى نصف العضد ، والمثنى ضبعان ، والمعنى أن الشاعر يتنبأ بما سيكون له من شأن لومد الله فى عمره .
(٦) أفضل عنها : أى أزيد عليها وهى تضيق عن أن تسعنى .
(٧) ضمير الجفن : هو السيف المودع فى الجفن أو الغمد ، ويفخر الشاعر هنا بشجاعة قلبه ومضاء سيفه .
(٨) الدجن : المطر . وقساطل : جمع قسطل ، وهو غبار المعارك ، وغوادى المزن : هى السحب الغادية فى مسيرها . والمزن : جمع مزنة — على وزن غرفة — وهى السحابة الماطرة .
(٩) المواضى : السيوف ، جمع ماض . والقنا : الرماح ، وفى البيت كله كناية عن شجاعته ، فإذا طلبته وجدته بين السيوف والرماح . . .

إذا دعاك الهول فلا تَهبْه . .

وله من قصيدة يفتخر :

عففتُ عن الحسان فلم يَرُعنى الـ ... مشيبُ ، ولم يُنزِّقنى[١] الشباب
تُجاذبنى يدُ الأيام نفسى ... ويوشك أن يكون لها الغِلابُ
وتغدِر بى الأقاربُ والأدانى ... فلا عَجبٌ إذا غَدر الصِّحابُ
بنانى والعِنانُ إذا نَبَتْ بى ... رُبَى أرض ، ورَحْلى والركابُ[٢]
وسابغة كأنَّ السَّرد منها ... زُلال الماءِ لمَّعهُ الحَبَابُ[٣] !
وقد عَرَفَتْ توقُّلى المعالى ... كما عرَفت توقُّلَىَ العِقَاب[٤]
ونقب ثنيَّةٍ سدَّدتُ فيها ... أَصمَّ كأن لَهْذَمهُ شِهَاب[٥]
لأَمْنَعَ جانباً ، وأُفيد عزا ... وعِزُّ المرءِ ما عزَّ الجنابُ
إذَا هولٌ دعاك ، فلا تَهبْهُ ... فلم يَبْقَ الذين أَبَوا وهابوا . .

جـ — الرثاء

كيف خبا ضياء النادى ؟

فى سنة ٣٨٤ هـ توفى الكاتب المنشئ البليغ أبو إسحاق الصابى ؛ وكان صديقًا حميمًا للشريف ، فرثاه رثاء مبكيًا ، مما جعل الناس يعجبون من شريف مسلم يرثى رجلا من الصابئة . والأبيات التالية من مرثية له :

---

(١) ينزقنى : يجعلنى أميل إلى النزق والطيش . (٢) نبا به المكان صار نابيا قلقا .

(٣) السابغة : هى الدرع ، والسرد : نسج الدروع ووضع حلقاتها بعضها فى بعض ، والحباب بفتح الحاء : هى التموجات والطرائق التى تظهر على وجه الماء حين تمر عليه الريح .

(٤) التوقل : الصعود فى المكان المرتفع ، والعقاب بالكسر : جمع عقبة وهى ما يعترض السائر أو الصاعد . أو العقاب بضم العين وهى الطائر المعروف الذى يطير إلى القمم .

(٥) النقب : الطريق فى الجبل ، والثنية : طريق المقبة ، والأصم : الرمح ، واللهذم : حديدة الرمح ونصله .

أعلمتَ من حملوا على الأعواد ؟ أرأيتَ كيف خبا ضياء النادى؟[١]
جبلٌ هَوى، لو خرَّ فى البحر اغتدى مِن وَقْعه مُتتابعَ الإزباد[٢]
ماكنتُ أعلم قبل حَطِّك فى الثرى أن الثرى يعلو على الأطواد
بُعْدًا ليومكَ فى الزمان ! فإنه أقْذى العيون وَفتَّ فى الأعضاد[٣]
لا ينفَدُ الدمعُ الذى يُبْكَى به إن القلوبَ له من الأمداد !
كيف انمحى ذاك الجناب وعُطِّلت تلك الفِجاج ،وضلَّ ذاك الهادى ؟
طاحت بتلك المكرماتِ مدائحٌ وَعَدت على ذاك الجواد عوادى
هذا أبو إسحاق يغلقُ رهنهُ هل ذائدٌ ، أومانعٌ ، أو[٤]فادى؟
والدهرُ تدخُلُ نافذات سمومه مأوى الصِّلالِ ، ومربض الآساد[٥]
أعزِزْ علىَّ بأن يفارق ناظرى لمعانُ ذاك الكوكب الوقاد
أعزِزْ علىَّ بأن نزلتَ بمنزل متشابه الأمجاد والأوغاد . . .
فى عصبة جَنَبوا إلى آجالهم والدهرُ يُعجلهم عن الإرواد[٦]
ضَرَبوا بمَدْرَجة الفناء قبابهم من غير أطنابٍ ولا أوتاد[٧]
بادُونَ فى صُوَرِ الجميع . وإنهم متفرقــون تفرق الآحاد

---

(١) الأعواد : جمع عود ، والمراد خشبة الميت .
(٢) يشبه المرثى بجبل عظيم لوسقط فى البحر لجعله يضطرب ويزبد زبداً كثيراً .
(٣) الأعضاد : جمع عضد ، وفت فى العضد كناية عن الإضعاف والإنهاك .
(٤) غلق الرهن : لم يقدر راهنه على تخليصه بدفع المال فأصبح ملكا للمرتهن . وهنا كناية والمقصود أن المرثى حل ميعاده الذى لا تفيد معه فدية أو مال أو دفع .
(٥) الصلال : جمع صل وهى أخبث الحيات ، والآساد : جمع أسد والمعنى أن سهام الدهر المسمومة تدخل مكامن الحياة ، وغيل الأسد لا ترهبها .
(٦) الإرواد : الإبطاء فى المشى ، والمعنى أن المرثى نزل بين الموتى الذين يتعجلهم الموت ، فلا يبطئون عن الاستجابة له .
(٧) المدرجة : المكان الذى يدرج فيه ، وضربوا قبابهم كناية عن أنهم حطوا رحالهم بوادى الموت . وقد ضربوا القباب بلا أوتاد ولا حبال تشد بها .

جَبَل على أيدى الرجال

توفى الخليفة الطائع سنة ٣٩٣ هـ بعد اثنتى عشرة سنة من نكبته وخلعه ، تلك النكبة التى كان الشاعر الشريف الرضى شاهدها . فقال يرثيه من قصيدة :

أىُّ طَوْدٍ دُكَّ من أىِّ جبالِ ... لقِحت أرضٌ به بعْد حِيال[1]
ما رَأَى حَىٌّ نِزارٍ قَبْلها ... جَبَلاً سارَ على أيدى الرجال
عَجَبا ! أصبحت للضيم ، وما ... نَشر الطعنُ أنابيب العوالى
فإذا رامِى المقادير رَمَى ... فدروعُ المرءِ أعوانُ النصال[2]
أيها القبر الذى أمْسَى به ... عاطلُ الأرض جميعاً وهو حالى[3]
لم يواروا بكَ مَيْتاً ، إنما ... أقرغوا فيكَ ذَنوباً من نوال[4]
وبِرَغمى أن كسوناك الثَّرى . ... وَفَرشناكَ زرابىَّ الرمال[5]
وهَجرناكَ على ضنِّ الهوَى ... رُبَّ هجران على غير تَقَالى[6]
كلُّ مأسور يُرجَّى فَكُّهُ ... غيرَ من أصبحَ فى قيْد الليالى

لا رزء أعظم من مصابك

كان الصاحب بن عباد وزيراً لبنى بويه ، وكان كثير الإعجاب بشعر الشريف الرضى ، وطالما تمنى الشريف لقاءه فلم تتحقق أمنيته . فلما مات بكاه

---

(١) لقحت بعد حيال : أى أخصبت بعد جدب .

(٢) إذا الأقدار رمت فإن دروع المرء لا تمنعه بل تكون أعوانا لنصاله عليه . . .

(٣) الأرض العاطل : هى المجردة من كل شىء كالمرأة العاطل من الحلى ، والحالى : هو الذى عليه الحلى من النساء .

(٤) الذنوب بفتح الذال : الدلو العظيمة . والمعنى أنهم لم يدفنوا فى القبر شخصا ميتا ، وإنما دفنوا فيه العطايا الكثيرة والنوال الجم .

(٥) الزرابى : جمع زربية وهى الوسادة ، والمعنى أنه على رغم أنوفنا أننا أنزلناك القبر حيث يكسوك التراب ، وتتوسد الرمال . .

(٦) التقالى : هو الكره والقلى . والمعنى أننا هجرناك على الرغم منا وعلى غير كراهة منا لك .

الشاعر بقصيدة يقول فيها :

أكذا المنونُ تقطِّر الأبطالا ؟ أكذا الزمان يضعضع الأجبالا ؟
أكذا تُصاب الأُسْدُ وهى مُدلَّةٌ تحْمى الشُّبولَ ، وتَمنع الأغيالا[1]
أكذا تُحطُّ الزاهراتُ عن العلا من بَعد ما شأَت العيونَ منالا ؟
أكذا تُغاضُ الزاخراتُ وقد طغت لججا ، وأوردت الظماءُ زُلالا
يا طالبَ المعروف حَلَّقَ نجمُه حُطَّ الحُمولَ ، وعَطِّلِ الأجمالا![2]
وأقم على يأْس ! فقد ذَهَب الذى كان الأنامُ على نداه عيالا
مَن كان يَقْرِى الجهلَ علما ثاقبا والنقص فضلا ، والرجاءَ نوالا[3]
خَلعَ الردى ذاك الرداء نفاسةً عنا ، وقلَّص ذلك السربالا
ما كنتَ أول كوكب ترك الدنَى وسما إلى نظرائه فتعالى
لا رزءَ أعظمُ من مصابك إنه وَصَل الدموع ، وقطَّع الأوصالا
يا آمر الأقدارِ كيفَ أطعتَها ؟ أو ما وقالك جلالك الآجالا ؟[4]

لأقول للمدامع كفكفى

وحين مات الشريف ذو المناقب أبو أحمد الحسين بن موسى والد شاعرنا سنة ٤٠٠ هـ ، رثاه ابنه الشريف الرضى بقصيدة يقول فيها :

وَسَمَتْك حاليةُ الربيع المرهِم وَسَقَتْك ساقيةُ الغمام المرزم[5]

---

(١) مدلة : ذات تيه ودلال . والشبول : جمع شبل وهو ولد الأسد ، والأغيال : جمع غيل وهو بيت الأسد .

(٢) حط الحمول : أى أنزل الحمول عن ظهور الدواب والمطايا ، وعطل الجمال عن السير .

(٣) يقرى : أى يقدم الطعام للضيوف . والمرثى هنا كان يقدم للجهل علما ، وللنقص كمالا وللأمل عطاء .

(٤) يا آمر الأقدار : النداء هنا للمرثى ، وهى مبالغة ومغالاة يقصد منها الشاعر أن المرثى كان نافذ الكلمة مطاع الأمر .

(٥) المرهم : الممطر . والمرزم : الذى له صوت ، كناية عن المطر .

وغدت عليك من الحيا بمودِّع ... لا عن قِلًى ، ومن النَّدى بمسلِّم[١]

قد كنتُ أعذلُ قبل موتك من بكى ... فاليوم لى عَجَبٌ من المتبسم

لا قلتُ بَعدكَ للمدامع : كفكفى ... من عبرة ، ولوَ انَّ دمعى من دم

إن ابن موسى – والبقاءُ إلى مدى – ... أعطى القيادَ بمارنٍ لم يُخطَم[٢]

ومضى رحيض الثّوب غير مدنَّس ... وقَضى نقىَّ العُود غيرَ مُوصَّم[٣]

وَحَماهُ أبيضُ عرضِه وثنائِهِ ... ضمَّ اليدين إلى بياضِ الدرهم[٤]

وَغنِى عن الدنيا ، وكان شجىً لها ... إن الغنىَّ قذى لطرف المُعدم[٥]

متبلِّج كَرَماً إذا سُئل الجدَى ... مطر النَّدى أممًا ولم يتغيّم[٦]

يرمى المَغارم بالتِّلاد وينثنى ... ثَلِجَ الضمير ، كأنه لم يغْرَم[٧]

ويقول للنفسِ الكريمة سَلِّمى ... يومَ اللقاءِ ، ولا يقول لها اسلمِى[٨]

هَتَف الحِمام به ، فكان وصاته ... بَذْل الرغائب واحتمال المَغْرَمَ[٩]

---

(١) الحيا : المطر ، والقلى : الكره .

(٢) المارن : ما لان من الأنف ، لم يخطم : لم يوضع فيه الخطام ، وهو ما يجعل فى أنف البعير ليقاد به .

(٣) وحيض الثوب : مغسول الثوب والمراد أنه طاهر . والموصم : هو المرمى بالوصمات والعيوب .

(٤) المرثى حماه عرضه الأبيض وثناؤه عن أن يجمع الدراهم و يكنزها. وهنا كناية عن الجود.

(٥) الشجى : هو ما يعترض الحلق . والمعنى أن المرثى كان غصة فى حلق الزمان لاستغنائه عن الدنيا والغنى يكون دائماً كالشوكة فى عين الفقير .

(٦) المرثى كان يتهلل للعطاء ، وكانت سماؤه صحوا لاتغيم من البخل .

(٧) التلاد : جمع تليد وهو المال القديم النفيس . وثلج الضمير أى مطمئن الخاطر كأنه لم يصب بغرم فى العطاء .

(٨) هذا البيت كناية عن شجاعة المرثى وإقدامه على الموت غير هياب .

(٩) الحمام بالكسر : الموت . والمعنى أن الموت ناداه فكانت وصيته أن يبذل المغانم ويحتمل المغارم .

فارقت فيك تماسكى

وقال من قصيدة مؤثرة يرثى بها والدته الشريفة فاطمة بنت الناصر . وقد توفيت سنة ٣٨٥ هـ :

أبكيكِ لو نَفَعَ الغليل بكائى ... وأقولُ ، لو ذَهب المقال[1] بدائى!
وأعوذ بالصبر الجميل تعزِّيا ... لو كان بالصَّبر الجميل عزائى ..
طَورا تُكاثرنى الدموع .. وتارة ... آوى إلى أكرومتى وحيائى
أُبدى التجلُّدَ للعدو ولو دَرَى ... بتململُى لقد اشتفى أعدائى[2]
ما كنْتُ أذخَرُ فى فداكِ رغِيبةً ... لو كان يَرجعُ ميِّتٌ بفداء
فارقتُ فيك تماسُكى وتجملى ... ونسِيتُ فيك تعزّى وإبائى
كم زفرةٍ ضَعُفتْ فصارتْ أنةً ... أتممتُها بتنفُّس الصُّعَداء[3]
قد كنتُ آملُ أن أكونَ لكِ الفدا ... مما ألمَّ فكنتِ أنتِ فدائى...
وتفرُّقُ البُعداء بَعْد مودَّة ... صَعبٌ ، فكيف تفرُّقُ القرباء؟
وتداوُلُ الأيام يُبْلِينا كما ... يُبْلِى الرشاءُ تطاوُحُ الأرجاء[4]
لو كانَ مثلَكِ كلُّ أم بَرَّةٍ ... غنِىَ البنونَ بها عن الآباء
كيف السُّلوُّ ، وكلُّ مَوقع لحظة ... أثرٌ لفضلك خالدٌ بإزائى ؟
رزآن يزدادان طُولَ تَجدُّدٍ ... أبدَ الزمان : فناؤها وبقائى !
آوِى إلى بَرْد الظلال كأنّنى ... لتحرُّق آوى إلى الرمضاء[5]

---

(١) نقع البكاء الغليل : أى شفى الغلة .
(٢) أنا أظهر التجلد على المصاب ، ولو علم أعدائى بجزعى لشفوا غليلهم .
(٣) تنفس الصعداء : أى تنفس نفسا ممدودا من التوجع .
(٤) الرشاء : الحبل للدلو وغيرها . والأرجاء : جمع رجا وهو جانب البئر . والمعنى أن تطاوح الحبل فى جانبى البئر يساعده على أن يبلى ويفنى .
(٥) الرمضاء : الحجارة الحامية . والمعنى أننى حين آوى إلى الظل الظليل البارد أجده من حرق الحزن كالحجارة الحامية .

القدر الغالب

وقال الشريف من قصيدة يرثى بها عميد الجيوش أبا على المتوفى سنة ٤٠١ هـ :

كذا يهجُمُ القَدَرُ الغالبُ ... ولا يمنَعُ البابُ والحاجبُ

وهل نحنُ إلا مرامِى السِّها ... م يحفِزها نابلٌ دائبُ[١] ؟

نُسَرُّ إذا جَازَنا طَائشٌ ... ونجزَعُ إن مسَّنا صائبُ

ففى يومنا قَدَر لابدٌ ... وعند غدٍ قدَر واثِبُ[٢]

طرائدُ تطلُبها النائباتُ ... ولا بدَّ أن يُدْرِك الطالب[٣]

أَرَى المرءَ يفعلُ فِعل الحديد ... وهُو غدًا حمأٌ لا زِبُ[٤]

لنا بالردى موعدٌ صادقٌ ... ونيلُ المُنَى واعدٌ كاذبُ

لقد كان رأيك حَلَّ العقال ... إذا طلَع المُعضل الكاربُ[٥]

فيومُ النُّهَى مُشرق شامسٌ ... ويومُ النَّدَى ماطِرٌ ساكب

فأين الفيالق مجرورةً ... وقد عضَل اللَّقم اللاحب ؟[٦]

وكنت العميدَ لها والعِمادَ ... فضاع الحِمَى ووهى الجانب

طواكَ إلى غيرِكَ المعتفى ... وجاوز أبوابَكَ الراغب[٧]

---

(١) النابل : الذى يرى بالنبل ، ويحفزها : يدفعها ويقذفها .

(٢) لابد : أى ملازم مقيم .

(٣) الطرائد : جمع طريدة وهى ما يحاول الصياد أن يطارده ليصيده .

(٤) الحمأ : الطين وخاصة الأسود المنتن منه ، واللازب : اللزق المتماسك .

(٥) حل العقال كناية عن التهيؤ للحرب ، والكارب هو الذى يكرب الإنسان ويصيبه بالكرب والبلاء .

(٦) عضل الأمر اشتد واستغلق ، واللقم بفتحتين : الطريق ، واللاحب : الواضح .

(٧) المعتفى : طالب النوال ، ومعنى طواك إلى غيرك أى تجاوزك إلى سواك .

نقلت من عينى إلى قلبى

وقال يرثى امرأة تخصه :

على أىِّ غَرسٍ آمنُ الدهر بعدما ... رمى فادحُ الأيام فى الغُصُن الرَّطْب ؟
ذَوَى قبل أن تذوِى الغصونُ وعهده ... قريبٌ بأيام الربيلة والخِصب[1]
كَفَى أسفاً للقلب - ماعشتُ - أننى ... بكفِّى على عينى حَثوتُ من التُّرب[2]
جَرت خطرةٌ منها وفى القلبِ عطشةٌ ... رفعتُ لها رأسى عن البارد العذْب[3]
وقلتُ لجفنى : رُدَّ دمعاً على دم ... وللقلب : عالج قَرْحَ نَدبٍ على نَدْب[4]
ومما يُطِيبُ النفسَ بَعْدكِ أننى ... على قَرَبٍ من ماء وِردك أو قُرْب[5]
ألا لا جوًى مسَّ الفؤادَ كذا الجوى ... ولا ذنْبَ عندى للزمان كذا الذَّنب[6]
خلا منكِ طَرفى ، وامتلا بك خاطرى ... كأنكِ مِن عينى نُقلتِ إلى قلبى..!

د - النسيب

ياظبية البان

اشتهرت هذه الكافية فى غزل الشريف ، وشرقت وغربت ، وعارضها كثير من الشعراء :

يا ظبيةَ البانِ تَرعَى فى خمائله ... لِيَهْنكِ اليومَ أن القلب مرعاكِ[7]
الماءُ عندكِ مبذولٌ لشاربِهِ ... وليس يرويك إلا مدمع الباكى

---

(١) الربيلة : النعمة والخصب .
(٢) حثا التراب : هاله .
(٣) البارد العذب : هو الماء .
(٤) الندب : الجرح أو أثره فى الجسم .
(٥) القرب بفتحتين هى الليلة التى يصبح القوم منها على الماء .
(٦) كذا الجوى : أى كهذا الجوى ، وقد حذفت الهاء ، والجوى : الحزن .
(٧) البان : نوع من الشجر ، سبط القوام ، فيه مرونة ولين ، وتشبه به الحسان فى اللين والطول

هبَّت لنا من رياح الغَور رائحةٌ ... بَعْد الرُّقَاد عرفناها بريَّاكِ[١]

ثم انثنينا .. إذا ما هزَّنا طَرَبٌ ... على الرِّحال تَعلَّلنا بذاكرِاكِ

سَهْم أصابَ ورامِيه بذى سلَمٍ ... مَن بالعراقِ لقد أبْعدتِ مرماكِ[٢]

وَعْدٌ لعينيك عندى ما وفيت به ... يا قُرْبَ ما كذبت عينىَّ عيناك !

حَكتْ لحاظكُ ما فى الرِّيم من مُلَحٍ ... يوم اللقاءِ فكان الفضلُ للحاكى[٣]

كأنَّ طَرفكِ يومَ الجزع يُخبرنا ... بما طَوى عنكِ من أسماءِ قتلاكِ

أنتِ النعيمُ لقلبى والعذابُ له ... فما أمرَّك فى قلبى وأحلاك !

عندى رسائلُ شَوقٍ لستُ أذكرها ... لولا الرقيبُ لقد بلَّغْتُها فاك !

سَقى مِنًى ولياليَ الخيفِ ما شربت ... من الغمام ، وحيَّاها وحيَّاك[٤]

إذ يلتقى كل ذى دَين ومَاطِلهُ ... منا ، ويجتمع المشكوُّ والشاكى[٥]

لما غدا السِّرب يعطو بين أرحُلِنا ... ما كان فيه غريمَ القلب إلاَّك[٦]

هامت بكِ العين لم تَتْبَع سواك هَوًى ... مَن علَّم العين أن القلب يهواك ؟ !

بتنا ضجيعين !

وقال يصف ليلة من ليالى حبه . . . :

ورُبَّ يومٍ أخذنا فيه لذَّتنا ... من الزمان بلا خَوْفٍ ولا وجل

---

(١) الريا : هى الرائحة الطيبة ، والغور : اسم مكان .

(٢) ذو سلم : اسم مكان بالحجاز أكثر الشعراء من ذكره فى نسيبهم . والمسافة بين ذى سلم وبغداد بعيدة ، ولكن الحبيبة أبعدت ومايتها .

(٣) الريم : ولد الظبى ، وتشبه بعيونه عيون الحسان .

(٤) منى : اسم مكان مشهور بالحجاز وهى من أماكن الحج ، والخيف : اسم مكان بمنى وفيه مسجد الخيف المعروف فى التاريخ الإسلامى .

(٥) الماطل الدين : هوالذى يماطل فى السداد .

(٦) يعطو : يميل إلى الشىء ليتناوله ، والأرحل : جمع رحل ، وهو ما يوضع على ظهر البعير للركوب .

كنا نؤمِّله فى الدهرِ واحدة ... فجاءنا بالذى يُوفِى على الأَجل

ورُبَّ ليلٍ منعنا فى أَوائله ... إلى الصباح جوازَ النوم بالمُقل !

بتنا ضَجيعَين فى ثوب الظلام كما ... لفَّ القضيبين مَرُّ الرِّيح بالأُصل[1]

طَورًا عِناقا كأَن القلب من كَثَبٍ ... يشكو إلى القلب ما فيه من الغُلل

وتارةً رَشَفاتٍ لا انقضاء لها ... شرْبَ النزيف طوى علاًّ على نَهَل[2]

وكم سَرقنا على الأَيام مِن قُبَلٍ ... خوفَ الرقيب كشُرب الطائرالوجل..!

هل الربع كعهده ؟

وقال من قصائده الحجازيات :

أيا جَبَلَىْ نَجْدٍ أَبِينا ؟ سُقيتما ... مَتى زالت الأَظعانُ يا جَبلان[3]

أُناديكما شوقاً ، وأَعلم أنه ... وإن طالَ رجعُ القولِ لا تَعيان

أَقولُ وقد مدَّ الظلامُ رُواقه ... وأَلْقى على هامِ الرُّبى بجران[4]

نَشَدتكما أَن تضمرانى ساعَةً ... لعلِّى أَرى النار التى تَريَان !

وأَلقى على بُعدٍ من الدار نَفحةً ... تذمُّ على عينى من الهملان

قفا صاحِبىَّ اليوم أَسأَل ساعة ... ولا تَرْجعا سمعى بغير بيان[5] !

هَل الرَّبْعُ بعد الظاعنين كعهده ... وهل راجعٌ فيه علىَّ زمانى[6]؟

---

(١) لف العاشقين الضجيعين ثوب الظلام كما لفت الريح قضيباً بقضيب فى ساعة الأصيل . والأصل جمع أصيل .

(٢) العل والعلل : شرب الماء ثانية ، والنهل شرب المرة الأولى .

(٣) زالت : فارقت ورحلت . والأظعان : جمع ظعينة ، وهى الراحلة يرتحل عليها .

(٤) مد الظلام رواقه : انتشر وبسط ثوبه على المكان ، وهى استعارة . والجران : صفحة عنق البعير . وألقى بجرانه على الشىء أى استقر عليه وثبت .

(٥) لا ترجعا سمعى : لا تردا سمعى . والفعل ثلاثى لا رباعى ، يقال رجع سمعه ، لا أرجعه .

(٦) الظاعنين : الراحلين الراكبى الظعائن .

وهلْ مسَّ ذاك الشِّيحَ عرْنينُ ناشقٍ ... وهل ذاقَ ماءً باللِّوى شفتَان[1]؟
ولا عَجَبٌ قلبى كما هنَّ غادر ... على أن أضلاعى عليه حَوانى
لكَ الله ! هل بَعد الصدودِ تعطف ... وهل بَعد ريعان البعاد تدانى ؟
وما غَرضى أنى أسُومُك خُطةً ... كفانى قليلٌ من رضاك كفانى[2]!

٢ ـ الشريف الناثر

نعرض فيما يلى بعض نماذج من كتاب « تلخيص البيان فى مجازات القرآن » للكشف عن وجوه البيان والمجاز والاستعارة فى بعض آيات من القرآن الكريم :

من مجازات سورة الأعراف قوله تعالى : (ومن خفَّتْ موازينُه فأولئك الذين خسروا أنفُسَهم بما كانوا بآياتِنا يَظْلِمُون[3]) . فهذه استعارة . لأن الخسران فى المتعارف إنما هو النقص فى أثمان المبيعات ؛ وذلك يخص الأموال لا النفوس . إلا أنه سبحانه لما جاء بذكر الموازين وثقلها وخفتها ، جاء بذكر الخسران بعدها ، ليكون الكلام متفقًا ، وقصص الحال متطابقًا . فكأنه سبحانه جعل نفوسهم لهم بمنزلة العروض المملوكة ، إذ كانوا يوصفون بأنهم يملكون نفوسهم ، كما يوصفون بأنهم يملكون أموالهم .

وذكر خسرانهم لها لأنهم عرَّضوها للخسار ، وأوجبوا لها عذاب النار ، فصارت فى حكم العروض المُتْلفات ، وتجاوزوا حدَّ الخسران فى الأثمان إلى حد الخسران فى الأعيان :

وقاله سبحانه حاكيًا عن إبليس : (قال فبِما أغْويتَنى لأقْعُدَنَّ لهم

---

(١) الشيح : نوع من نبات الصحراء ، والعرنين : الأنف ، والناشق : الذى ينشق الشى كما ينشق الإنسان الماء . واللوى : اسم مكان يرد كثيرا فى الشعر العربى .

(٢) أسومك خطة : أى أريدك على خطة معينة .

(٣) الأعراف : آية ٩ .

صراطَكَ المستقيم)[١] ، وهذه استعارة . والصراط ههنا كناية عن الدين ، جعله الله سبحانه طريقًا للنجاة والمفاز فى دارى القرار والمجاز . وإنما قال صراطك ، لمَّا كان الدين كالطريق المؤدية إلى رضا الله سبحانه ومثوبته ، الموصّلة إلى نعيمه وجنته ، فكان إبليس — لعنه الله — إنما يُوعد بالقعود على طريق الدّين . ليُضلَّ عنه كل قاصد ، ويردَّ عنه كل وارد ، بمكره وخدائعه ، وتلبيسه ووساوسه ، تشبيهًا بالقاعد على مَدْرَجة بعض السبل ؛ ليخوّف السالكين منها ، ويعدلَ بالقاصدين عنهَا . والمراد : لأقعدنَّ لهم على صراطك المستقيم ، فلما حُذف الجارُّ انتصب الصراط . والحذف ههنا أبلغ فى الفصاحة ، وأعْرقُ فى أصول العربية ، ونظيرهُ قول الشاعر : (كما عَسَلَ الطريقَ الثعلبُ) ، أى : عَسَلَ فى الطريق .

وكلُّ ما فى القرآن من ذكر الله سبحانه ، فالمراد به الطريق المفضية إلى طاعته عاجلاً وإلى جنته آجلا .

وقوله سبحانه : (فدلاَّهما بغُرور)[٢] وهذه استعارة . والمراد أنه أوقعهما فى أهوائه بغروره لهما . وكلُّ واقع فى مثل ذلك فإنه نازل من علو إلى استفال ، ومن كرامة إلى إذلال . فلذلك قال تعالى : (فدلاَّهما بغرور) ، وقد استقصينا الكلام على ذلك فى كتابنا الكبير ، عند القول فيما اختلف العلماء فيه من ذنوب الأنبياء عليهم السلام .

وقوله تعالى : (يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسًا يوارى سوءاتكم ، وريشًا ولباسُ التقوى ذلك خير)[٣] . وقد قرئ : ورياشًا . وهما جميعًا استعارة ههنا ؛ لأن المراد بهما اللباس . وسمى ريشًا ورياشًا تشبيهًا بريش الطائر الذى يستر جملته . ومن كلام العرب : أعطيتُه رجلا بريشه ، أى بكسوته .

وقال المفسرون : معنى لباس التقوى ما كان من الملابس يستر العورة ،

---

(١) الأعراف : آية ١٦
(٢) الأعراف : آية ٢٢
(٣) الأعراف : آية ٢٦

لأن ستر العورة من أسباب التقوى . وقرئ : ولباسَ التقوى : نصْبًا بأنزلنا عليكم . والرفعُ فيه على معنى الابتداء، ويكون « خير » خبراً له. فيكون المعنى : ولباس التقوى المشار إليه خير . وهذا أسدُّ القولين فى هذا المعنى .

وقوله تعالى : (وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد)[١] . وهذه استعارة . لأن الوجه لا يصح عليه القيام . والمعنى : فوجهوا وجوهكم عند كل مسجد، ويجوز أن يكون معنى ذلك : فتوجهوا بجملتكم نحو كل مسجد؛ لأن وجه الشىء عبارة عن جملته .

وقوله تعالى: (إن الذين كذَّبُوا بآياتِنا واستكبروا عنها لا تُفتَّحُ لهم أبواب السماء)[٢] وهذه استعارة. والمراد لا يصلون إلى الجنة ، ولا يتسهل لهم السبيل إليها ، ولا يستحقون بأعمالهم الدخول إليها . ومثل ذلك قوله سبحانه : (ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر)[٣] . أى سهَّلنا خروجه من السماء إلى الأرض، ورفعنا الحواجز بينه وبين الخلق .

وقوله تعالى : (لهم من جهنم مِهادٌ ومن فوقهم غَوَاشٍ)[٤] . وهذه استعارة . وقد مضى فى آل عمران : إلا أن الزيادة ههنا قوله سبحانه : ومن فوقهم غواشٍ ، فكأنه جعل لهم من النار أمهدة مفترشة ، وأغشية مشتملة ، فيكون استظلالهم بحرها ، كاستقرارهم على جمرها . نعوذ بالله من ذلك .

---

(١) الأعراف : آية ٢٩

(٢) الأعراف : آية ٤٠

(٣) القمر : آية ١١

(٤) الأعراف : آية ٤١

obeikandl.com

المراجع والمصادر

مرتبة على حروف المعجم

الإتقان فى علوم القرآن : للسيوطى . القاهرة ١٣٥٤ هـ .

البداية والنهاية : لابن كثير . القاهرة ١٩٣٢ .

تاريخ آداب اللغة العربية : لجرجى زيدان . القاهرة .

تاريخ بغداد : للخطيب البغدادى . القاهرة ١٣٤٩ هـ .

تجديد ذكرى أبى العلاء : للدكتور طه حسين . القاهرة .

تلخيص البيان فى مجازات القرآن : للشريف الرضى . القاهرة ١٩٥٥ .

الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى : لآدم متز . القاهرة ١٩٤٠ .

دائرة المعارف الإسلامية . الترجمة العربية . القاهرة .

شرح ديوان الشريف الرضى . القاهرة سنة ١٣٦٨ هـ .

شرح ديوان الشريف المرتضى : للأستاذ رشيد الصفار . القاهرة ١٩٥٨ .

شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد . القاهرة ١٩٥٩ .

شروح سقط الزند للمعرى . دار الكتب والوثائق القومية ١٩٤٨ .

الشريف الرضى : للدكتور إحسان عباس . دار بيروت وصادر .

الشريف الرضى : مناهل الأدب العربى . بيروت سنة ١٩٤٩ .

عبقرية الشريف الرضى : الدكتور زكى مبارك . بغداد سنة ١٣٥٧ هـ .

الغدير : للشيخ عبد الحسين أحمد الأمينى . النجف الأشرف ١٣٦٥ هـ .

الكامل : لابن الأثير : القاهرة ١٣٤٨ هـ .

كشف الظنون : لحاجى خليفة . إستنبول سنة ١٣١٠ هـ .

المجازات النبوية : للشريف الرضى ، القاهرة سنة ١٣٥٦ هـ .

مجاز القرآن : لأبى عبيدة . القاهرة سنة ١٣٧٤ هـ .

obeikandl.com

محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية : للشيخ محمد الخضرى . القاهرة بدون تاريخ .

مختارات البارودى : لمحمود سامى البارودى . القاهرة ١٣٢٩ هـ .

نهج البلاغة : القاهرة بدون تاريخ .

الوافى بالوفيات : للصفدى . إستانبول .

وفيات الأعيان : لابن خلكان . مطبعة بولاق الأميرية .

يتيمة الدهر : للثعالبى . القاهرة ١٩٣٤ .

obeikandl.com